الصلات الثقافية

بين العالم الإسلامى والغرب

بقلم

الأستاذ الدكتور/ محمود حمدى زقزوق

عميد كلية أصول الدين — القاهرة

الصلات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب(١)

١ — تمهيـــد :

نحن جميعا ندرك أن مايشهده عالم اليوم من مشكلات سياسية واقتصادية وبيئية وغيرها من مشكلات تتطلب البحث عن حلول ناجعة لها يدفعنا دفعا إلى ضرورة التحاور العميق بين العالم الإسلامى والغرب، والمقصود هنا ليس هو مجرد التحاور بين بعض الأفراد من أصحاب النيات الطيبة من الجانبين ، وإنما المقصود هو التعاون بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى، وبخاصة على المستوى العلمى من أجل خير هذا العالم واستقراره . ومن الواضح أن وحدة هذا العالم وفرصته فى الحياة ومدى قوة ترابطه تتأثر سلبا أو إيجابا بمقدار قوة أو ضعف أى حلقة من حلقات السلسلة التى تجمع أمم العالم المختلفة .

فما الذى ينبغى عمله فى هذا الصدد ؟

إننا إذا تأملنا فى الحوار الإسلامى الغربى الذى تم حتى اليـــوم نكتشف أنه كانت له كثير من خصائص «المونولوج» أو الحوار من طرف واحد ، وقد ترك ذلك على الجانبين انطباعا بأن إمكانية الحوار الحقيقى

---

(١) تم إلقاء أصل هذا البحث بالألمانية فى ندوة تأسيس «الجمعية العلمية للبحوث الإسلامية» التى عقدت فى جامعة بامبرج بألمانيا فى الفترة من ٧ إلى ٩ سبتمبر ١٩٩٠ ، وتم نشره فى ألمانيا فى الكتاب التذكارى للأستاذ الدكتور A. Falaturi الذى صدر تحت عنوان :

Gottes ist der Orient, Gottes ist der Okzident, Koeln—Wien 1991.

غير قائمة . فكل جانب لم يستطع أن يفهم الجانب الآخر . فهل وصل الأمر إلى حد اليأس وفقدان الأمل فى إمكان قيام حوار مثمر بين الجانبين ؟

إننا لانريد أن نغرق فى التشاؤم ونقطع الأمل فى إمكان التعاون البناء بين الجانبين . صحيح أنه لايمكن تجاهل الحقيقة المتمثلة فى أن الحوار بين الجانبين قد نشأ أصلا تحت ضغط ظروف مادية تتمثل فى النفط والثروة الجديدة فى جانب والتفوق التكنولوجى والقوة السياسية فى الجانب الآخر . ولكن على الرغم من ذلك فإنه من ناحية أخرى قد أصبح من الأمور التى لاتخفى على عاقل أن كلا الجانبين يشعران بأن هناك حاجة ماسة تقضى بوجوب البحث عن حلول على الصعيد الثقافى والحضارى لتكون على الأقل مكملة لتلك الحلول القائمة على أساس مادى . ولكن العقول هنا تختلف فى تقديرها للامور . فكل جانب يشعر بأنه قد أسىء فى الغالب فهم مقاصده الطيبة بدرجة تقل أو تكثر ، وهناك على الأقل شعور لدى كل جانب بأن الجهود التى تبذل فى إقامة جسور للثقة والتفاهم بين العالم الإسلامى والغرب تعد جهودا متواضعة إلى حد بعيد ، ولا ترقى بأى حال من الأحوال إلى مستوى المسئولية المشتركة التى ينبغى أن يتحملها الجانبان .

ولعل عدم جدوى الحوار حتى الآن ترجع إلى افتقاره إلى لغة الحضارة واعتماده على اللغة العادية . ومن الواضح أن هذه ليست مساوية لتلك ، على الأقل بسبب تعقد الحضارات وتعدد جوانبها . وبصرف النظر عن ذلك كله فان العالم الحديث المصبوغ بالصبغة التكنولوجية التى انتشرت فى كل مكان قد أدى من غير شك إلى إهمال لغة الحضارة بما له من قوة جبرية على التكييف فى اتجاه نمط واحد .

وإزاء هذه الظروف يبرز هناك بصفة متزايده بديل للغة الحضارة يتمثل فى لغة العلم ، ويأمل المرء أن يكون ذلك بديلا حقيقيا[١] .

إن الاختلافات الحضارية فى أساسها ليست اختلافات مطلقة مثلما تبدو . ومن أجل ذلك فإن محاولة التعرف على الآخرين تعرفا حقيقيا أمر لا ينبغى التخلى عنه . وإذا كانت هناك شعوب وأمم مختلفة بين البشر فإن هذا الاختلاف بينها يدعوها إلى أن يتعرف كل منها على الآخر ، بل إن وجهة النظر الإسلامية هنا ترى أن هذا التعارف هو سبب وجودها على هذا النحو . فالقرآن الكريم يقول فى ذلك : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »[٢] .

وفى إطار هذا التعارف لاتوجد طبقية أو امتياز لطائفة من الطوائف على غيرها بأى شكل من الأشكال . فالهدف فى النهاية أمام الجميع واحد . ويذكرنا القرآن الكريم دائما بالمساواة المبدئية بين كل بنى البشر . ويرتبط ذلك ارتباطا وثيقا بمبدأ وحدة الألوهية . والمعيار الوحيد للتفاضل بين الناس هو التقوى والقرب من الله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[٣] .

ويشير القرآن فى الآية التالية للآية السابقة إلى أن عقيدة التوحيد ليست مجرد كلمات تقال بالأفواه ، وإنما ينبغى أن تستقر فى الأعماق بإخلاص : « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم »[٤] ، كما أن العقيدة لا يمكن أن تفرض بالقوة

(1) Hans Kueng : Christentum und Weltreligionen, Muenchen 1984, p. 98.

(٢) سورة الحجرات ١٣

(٣) الحجرات ١٣

(٤) سورة الحجرات ١٤

«لا إكراه فى الدين»(١) وإنما تخضع لإرادة الإنسان وحريته: «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»(٢).

وعند التحليل الدقيق للمهمة الموكولة إلى كل البشر من مختلف الحضارات والمتمثلة فى التعارف الحقيقى والفهم المتبادل فإننا نجد أن الفهم الصحيح هنا ليس فقط أمراً واجبا، وإنما يمثل فى الوقت نفسه فرصة لا يجوز التفريط فيها، إنه الفرصة التى تتيح للمرء نفسه المجال إلى ترسيخ جذوره ترسيخا أكثر عمقا عن طريق الاعتراف بواقع الاختلافات بين البشر الذين جعلهم الله شعوبا وقبائل مع بذل الجهود الصادقة لفهم الآخرين، وهنا يرتبط الفكر بالعمل فى وحدة واحدة مثل الجانب الأعلى والجانب الأسفل من اليد الواحدة. والطريق إلى تحقيق ذلك يمكن أن يكون طريقا طويلا، ولكن بلوغ الهدف ليس أمراً مستحيلا مادام الأمل قائما.

ويذهب أحد المسلمين الغربيين(٣) وهو لى جاى إيتون Le Gai Eaton ـ وهو من العارفين بكلا العالمين الإسلامى والغربى ـ يذهب إلى القول بأن عالمنا الذى يحيط به اليأس من كل جانب فى أشد الحاجة إلى الأمل الإسلامى. فالأمة الإسلامية ـ كما يقول ـ تعد شاهدة على هذا الأمل الذى يمكن أن يؤدى إلى النجاة من الطريق المسدود الذى يسير فيه العالم الحديث، وذلك لأن الله يمثل بالنسبة للأمة الإسلامية محور حياتها، وليس النزعة المادية أو النزعة المغرقة فى الملذات أو التكنولوجيا(٤).

ومن أجل ذلك يذهب هذا المسلم الغربى إلى القول بأن الإنسان

(١) البقرة ٢٥٦ (٢) سورة الكهف ٢٩

(3) Le Gai Eaton, Ch. Der Islam und die Bestimmung des Menschen, Koeln 1987, p. 56 ff.

(4) Francis Edwards in : The Times 1980.

الحديث إذا استطاع أن يفهم المسلم، وربما استطاع أن يبدأ فى أن يفهم نفسه قبل أن يمضى إلى تدمير ذاته»(١).

وهذه المهمة التى تتمثل فى ضرورة التعرف على الآخرين كما هم فى واقع الأمر وما يتصل بذلك من معرفة المرء لذاته تعد مهمة تسرى كذلك بالنسبة للمسلم.

٢ ـ العلاقات الثقافية بين العالم الإسلامى والغرب:

لقد سبق أن أشرنا إلى أن لغة العلم يمكن أن تخدم ـ بوصفها وسيلة للتفاهم ـ فى تحقيق الحوار بين الحضارات المختلفة. ولكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تم التعامل بها بطريقة موضوعية ودون أن تشوبها نزعة متعالية(٢). وهذا يعنى أن تتم بطريقة عقلانية ودون أن تعكر صفوها نزعات أو ميول جدلية أو تبشيرية أو أيديولوجية.

فالعلم ينبغى أن يزيل سوء الفهم ويضع مكانه فهما صحيحا. ولكن الفهم الصحيح للحضارات الأخرى يتطلب تدريبا تخصصيا وتكوينا ثقافيا، وقد يتوفر التدريب التخصصى وتغيب الثقافة الضرورية أو تكون قاصرة. وهنا تنشأ حينئذ آراء لا تعدو فى الغالب أن تكون خليطا من سوء فهم خاص وأخطاء مأخوذة عن الآخرين.

ويؤكد ذلك عالم الأديان الألمانى المعروف الأستاذ كونج Kueng حول ما يقال عن الإسلام حيث يقول:

(1) Le Gai Eaton, p. 58.

(2) M. W. Watt : What is Islam ? London 1979, p. 216.

« إن ما يمكن أن يسمعه المرء أو يقرأه عن الإسلام فى وسائل الإعلام (الغربية) المختلفة وما يقوله المثقفون عنه أمر مزعج ومخيف . إنه مزعج بمعنى مزدوج : أولا بسبب الاعوجاج والأحكام المغلوطة التى تتكشف فى هذه الأفهام . وثانيا بسبب الطريقة المخيفة والشريرة التى تلقى بها الأحكام عن الإسلام »[1] .

وليس هناك شك فى أن هذا التصوير المخيف للإسلام يفتقد تماما الشعور بالمسئولية العلمية .

ومن أجل ذلك فان روح التسامح تعد اليوم أمرا ضروريا لا غنى عنه أكثر من أى وقت مضى . ويمكن القول بأن روح التسامح يجب أن تسبق روح الفهم الصحيح . فالتسامح — الذى يعد شكلا من أشكال الهدنة العقلية — يجعل من السهل الوصول إلى الفهم الصحيح للآخرين .

ولكن التسامح بين الأديان يعد من الأمور المعقدة . صحيح أن هناك الآن بصفة عامة جهودا تذهب إلى حد بعيد فى التأكيد على الميراث الإبراهيمى المشترك لكل الديانات السماوية . ولكن الحق المطلق الذى تعلنه هذه الأديان لنفسها لا يزال يتعرض لسوء الفهم . وموقف الإسلام الواضح من هذه القضية هو أنه يجوز لأى من هذه الأديان أن تدعى لنفسها الانتساب إلى الحقيقة طالما كانت ملتزمة بالوحى الأصلى . وبناء على ذلك فإن الاعتراف بكل الرسل الذين أرسلهم الله إلى البشر منذ بدء الخليقة دون تفريق بينهم يعد جزءا أساسيا من عقيدة المسلم لا يجوز له أن يحيد عنه . وبذلك يعد التسامح الدينى بالنسبة للمسلم مبدأ من مبادئ الإيمان .

(I) Kueng, p. 31 (Josef van Ess).

ومن المهم فى هذا الصدد الإشارة إلى أن الدين الواحد منذ بدء الخليقة الذى هو دين الله والذى يعبر عنه القرآن الكريم بأنه الإسلام « إن الدين عند الله الإسلام »[1] يطلب من كل الناس الشىء نفسه وهو التسليم لله أو بمعنى آخر إسلام الوجه لله .

ومن أجل ذلك يسعى المسلمون إلى تشكيل حياتهم الفردية والاجتماعية طبقاً لروح الإسلام واستجابة لما يعنيه مصطلح الإسلام من التسليم لله .

ويشير أحد علماء الإسلاميات[2] فى ألمانيا وهو الأستاذ خورى فى كتابه (التسامح فى الإسلام) إلى هذه الحقيقة ويعبر عن آمال المسلمين فى أن « يجد الإسلام فى العصر الحاضر الطريق لبناء المجتمع والدولة حتى يستطيع أن يقوم بالدور الحقيقى المنوط به فى العالم — دون أن يفقد شيئاً من هويته — بوصفه شاهداً بالقسط[3] ، وبوصفه عنصراً مشاركاً فى تحقيق التضامن العالمى بين بنى البشر ، وفى إقامة نظام للمجتمع يكفل للناس جميعاً المساواة أمام القانون ، ويتمتعون فيه جميعاً بنفس الحقوق فى الحياة العملية ، ويشتمل أيضاً — بالإضافة إلى التسامح — على الاعتراف بحقوق الإنسان — التى لا يمكن التساهل فيها — لكل الناس دون تحفظ » .

وفى حين أن الغرب ينطلق فى بنائه للدولة وللمجتمع من وجهات

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩

(2) A. Th. Khoury : Toleranz im Islam, Muenchen 1980, p. 185.

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » المائدة آية ٨

نظر علمانية ، وبصفة خاصة من منطلقات اجتماعية وسياسية فإن اتجاه العالم الإسلامى فى هذا الصدد اتجاه دينى بصفة أساسية . وهذا يعنى أن تجديد الحياة الدينية يعد أمراً ضرورياً لتكوين نظـــام عادل للمجتمع.

وهذا التوجه يتفق فى نهاية الأمر مع أحدث المعارف فى مجال فلسفة الحضارة والتى تقضى بأن جذور كل حضارة تترسخ فى الدين ، ومن أجل ذلك تستمد حياتها منه .

وبعد أن تطرقنا باختصار إلى الإشكالية العامة فإننا نشير مرة أخرى إجمالا إلى أن كلا من العالم الإسلامى والعالم الغربى يتجه بوضوح إلى إقامة نظام عادل للمجتمع ، وتلك مهمة مشتركة ينعكس أثرها بالضرورة على بقية أجزاء العالم .

والتاريخ يحدثنا عن أمثلة كثيرة للتعاون بين العالمين الإسلامى والغربى فى المجال الحضارى بصفة عامة وفى المجال العلمى على وجه الخصوص . ومن منطلق الرؤية التاريخية نرى أن كفة الأمور المشتركة ترجح على كفة الاختلافات وهذا أمر يدعو إلى التفاؤل وإلى مزيد من الأمل .

أما ما يتصل بقضية الثقافة الإسلامية وتقدير هذه الثقافة فإنى أود هنا أن أشير إلى ما ماقاله فى ذلك أحد المستشرقين الذى وصف بأنه « شهيد الأدب العربى »[1] بسبب أعماله العلمية التى ضحى من أجلها بالكثير. لقد قال رايسكه Reiske منذ أكثر من مائتى عام :

« إن من يقدر تاريخ الآداب ستعتريه الدهشة عندما يجد أن هناك

(1) Fueck, J. Die arabischen Studien in Europa, Leipizig 1955, p. 124.

رجالا كثيرين جدا فى الشرق كانوا متبحرين فى كل أنواع الآداب فى وقت كانت فيه أوربا غارقة فى ظلام ليل الجهـــل والبربرية ، وسيعرف بسرور مدى الإسهام الذى قدمه كل منهم فى سبيل تنمية الثقافة »[1].

ومنذ عصر التنوير بذلت جهود كبيرة فى سبيل دراسة الحضارة الإسلامية دراسة موضوعية .

وقد تبين حينئذ أن الحروب الصليبية قد أتاحت للأوربيين فرصة التعرف على حضارة متفوقة ، وعقـــدصلات مع المسلمين فى أسبانيا وجزيرة صقلية . وقد قدم ذلك لأوربا المسيحية التراث العربى والإضافات الثقافية للميراث العلمى القديم . وقد أثرت الترجمات التى تمت منذ نهاية القرن الحادى عشر الدراسات العلمية فى مجالات العلوم الطبيعية والطبية والفلسفية »[2].

ويمكن باختصار إجمال العلاقات الثقافية بين الغرب والعالم الإسلامى تاريخيا فى مراحل ثلاثة على النحو التالى :

(1) Endress, G. Einfuerung in die islamische Geschichte, p, 13 Muenchen 1982.

(٢) المرجع السابق ص ١٤ .

(أ) المرحلة الأولى :

تتميز هذه المرحلة بتأثر العالم الغربى بالحضارة الإسلامية فى عصر ازدهارها وقد أظهر المسلمون منذ العصر العباسى انفتاحاً كبيراً إزاء الحضارات الأخرى .

ويعبر ابن رشد عن هذا الانفتاح عندما يذهب إلى القول بأن دراسة كتب الأقدمين تعد واجباً إسلامياً ، ويضيف قائلا : عندما نقرأ كتب الأقدمين نتأمل ماورد فيها فإن كان موافقا للحق قبلناه وسررنا به وشكرناهم عليه ، وإن كان فيها مالا يتفق مع الحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم[1] .

وقد تم الالتقـــاء بين الشرق الإسلامى والغرب بصفة أساسية فى الأندلس وفى جزيرة صقلية . وقد تأثر الغرب بحضارة الشرق الإسلامى المزدهرة على الصعيدين الدينى والعلمى بصفة خاصة . أما على الصعيد الدينى فقد كان الأثر سلبياً تمثل فى ســـيل جارف من الأساطير والافتراءات والأباطيل ضد الإسلام . ولكن الأمر كان على العكس من ذلك على الصعيد العلمى فقد كان التأثير إيجابياً . وقد أسهم فريدريك الثانى حاكم صقلية — والذى نصب قيصراً عام ١٢٢٠ وكان من عشاق الحضارة الإسلامية — أسهم بنصيب كبير فى نشر الثقافة العربية فى أوربا . وقد أنشأ جامعة نابولى التى درس فيها فيما بعد القديس توماس الأكوينى قبل دخوله إلى سلك الرهبنة ، وأهدى فريدريك إلى جامعتى

(١) فصل المقال لابن رشد ص ١٣ (ضمن مجموع بعنوان : فلسفة ابن رشد — القاهرة ١٩٦٨).

باريس وأكسفورد وغيرهما ترجمات لمؤلفات عربية . وقد تابع ابنه مانفرد جهود والده فى تقديم ثمار الحضارة الإسلامية إلى الغرب .

وتجدر الإشارة أيضاً بصفة خاصة إلى ريموند أسقف طليطلة من عام ١١٣٠ حتى عام ١١٥٠ ، فقد كان له الفضـــل فى إنشاء مجمع للترجمة عهد برئاسته إلى دومينيك جوند يسالفى . وقد أنجز هذا المجمع ترجمات لاتينية للعديد من المؤلفات العربية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وتمت حينذاك أيضاً أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام ١١٤٣ .

وقد كانت هذه الترجمات ـ التى توفر العلماء الغربيون على دراستها ـ تمثل الأساس التى قامت عليه الفلسفة المدرسية . وقد بين كارادیفو فى بحوثه مدى سيطرة النزعة السينائية (نسبة إلى ابن سينا) اللاتينية فى العصر الوسيط فى أوربا ، كما أكد العالم الفرنسى رينان فى كتابه عن (ابن رشد والرشدية) سيادة النزعة الرشدية اللاتينية فى الفكر الأوربى الوسيط ، وأثبت أن هذه النزعة الرشدية قد أسهمت إسهاماً كبيراً فى سبيل انتشار حرية الفكر فى ذلك العصر . وقد ظل التأثير الرشدى قائماً فى أوربا حتى القرن السابع عشر ، وكان هذا التأثير بمثابة التمهيد للنزعة العقلية فى أوربا فى عصر النهضة[1] .

(ب) المرحلة الثانية :

تبدأ المرحلة الثانية تاريخياً بالحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر . وقد تعرف الشرق الإسلامى حينذاك على العالم الغربى ،

(١) انظر فى ذلك كتابنا : دور الإسلام فى تطور الفكر الفلسفى — دار المنار بالقاهرة ١٩٨٩ .

ولكن دون أن يكون لذلك أثر يذكر . ثم جاء بعد ذلك عصر الاستعمار. وقد شهد القرن التاسع عشر جهوداً أكثر من ذى قبل من أجل التعرف على الغرب .

(ج) المرحلة الثالثة :

المرحلة الثالثة هى المرحلة المعاصرة . وقد شهد العصر الحاضر انتشار المدنية الغربية والتكنولوجيا الغربية فى كل مكان من العالم تقريباً بما فى ذلك العالم الإسلامى . ولكن العالم الإسلامى لم يأخذ بمنجزات الحضارة الغربية فى كل جوانبها ، بل كانت له بعض التحفظات فى بعض الجوانب . وعلى سبيل المثال نجد أن هناك مواقف متناقضة فى العالم الإسلامى إزاء العلوم الاجتماعية الغربية . فهناك من يؤيد الأخذ بها بلا حدود ودون تحفظ ، وهناك من يرفضها رفضاً تاماً . وقد ظهرت هناك محاولات راحت تبحث عن طريق وسط بين هذين الاتجاهين وذلك فى شكل جهود علمية نقدية . وهذه المحاولات العلميـــة النقدية ترتبط بطبيعة الحال ارتباطاً وثيقاً بمحاولات نقد ذاتى على الجانب الإسلامى .

وقد سبق أن أشرنا مراراً إلى أن الحوار الغربى الإسلامى لم يستطع حتى الآن أن يصل إلى الحد الأدنى الذى يحظى برضا الطرفين . ومن أجل ذلك وصفت هذا الحوار فى مناسبة أخرى بحوار الصم[1] نظراً لعدم فهم كل جانب للجانب الآخر .

وفى مستهل القرن الحالى بدأت محاولات الجانب الإسلامى فى النظر

(١) انظر فى ذلك كتابنا : الإسلام فى تصورات الغرب ـــ القاهرة ١٩٨٧ ص ١٧ .

إلى الحضارة الغربية نظرة نقدية[1] . وقد عبرت باحثة غربية هى الأستاذة R. Wielandt عن صلة العالم الإسلامى بالحضارة الغربية بقولها[2] : « لقد شعر المرء فى العالم الإسلامى بوضوح بازدواجية التقدم القادم من الغرب ، ومن هنا كان السؤال الهام : ماذا يكون الحال إذا لم تكن هناك حدود ثابتة للتأثير الحضارى الغربى فى العالم الإسلامى ؟

ألا تكون هناك مخاطرة تتمثل فى خسارة باهظة تفوق ماقد يكسبه المرء عن طريق عملية التحديث من قوة سياسية ورفاهية مادية ؟

إن الخسارة هنا ستكون باهظة بالفعل لأنها تتمثل فى خسارة المرء لدينه ولكل ميراثه التاريخى ولذاتيته الحضارية بصفة عامة .

والأمر المثير للدهشة أننا نجد هناك الآن من الباحثين الغربيين[3] من يتحدث عن أن إعادة اكتشاف المسلم تؤدى إلى تشكك الغربى فى تصوراته الأيديولوجية ونماذجه التاريخية كذلك .

ويشير الباحث نفسه وهو الأستاذ Antes إلى أن ما يسمى بالتقدم الغربى ، قد تحول إلى شكل من أشكال تعاليم الخلاص الجديدة التى تقدم فيها الآن فكرة التبشير المسيحى (الغربيـــة) ... المرتبطة بالدعوى الكلاسيكية المطلقة فى ثوب علمانى طبقاً للشعار التالى . . . : ليس هناك أى خلاص خارج طريقتنا فى الحياة .

(1) Rotraud Wielandt : Islam und kult. Selbstbehaubtung. in : Ende, Steinbach, Der Islam in der Gegenwart, Muenchen 1984, p. 555,

(٢) المرجع السابق .

(3) Antes, p. Ethik und Politik im Islam, Stuttgart 1982,p. 12 f.

وخلفية ذلك كله تتمثل فى نموذج تاريخى يقضى بأنه ليس هناك إلا تطور واحد يمكن تصوره ، ولايمكن أن تترك فيه مرحلة جوهرية من مراحله ، أو لا يجوز تخطيها ، وذلك هو التطور الذى نقف نحن عند نهاية أبعد نقطة متقدمة فيه . وعليه فإن من لا يكون مثلنا على هذا النحو يعد — فى عرف هذا التفكير بطبيعة الحال — متخلفاً » .

والمؤلف نفسه — الذى يذكرنا بنموذج التطور الداروينى المطبق على التاريخ — يقتبس فى هذا المقام عبارة لمؤلف إيرانى يقول فيها[1] :

« هناك تصوران أساسيان للحرية : أولهما هو التصور الغربى المتمثل فى خلق حاجات جديدة باستمرار بطريقة متزايدة ، وثانيهما هو التصور المقابل لذلك والذى تتبناه العقلية الشرقية التقليدية ، ويقوم فى أساسه على أن الإنسان يجب عليه أن يحد من حاجاته باستمرار لكى يصبح مستقلا خارجياً وداخلياً » .

وهذا الموقف المتفتح الذى يطالب به المرء على الجانب الغربى يعد ضرورياً لإجراء حوار إسلامى غربى مثمر ، ولكن الطلب بطبيعة الحال أمر أسهل من التنفيذ الذى سيجر وراءه بدوره نتائج حاسمة .

٣ — إمكانات الحوار وآفاق التعاون :

إنه إذا كان ينبغى أن يكون هناك معنى للحوار المطلوب وأن يكتب له الاستمرار فإنه يجب على الأقل أن تتوقف المعاملة السيئة

(١) M. Minowi (المرجع السابق ص ١٣) .

للإسلام فى الغرب ، ولا يجوز الاعتذار عن هذه المعاملة السيئة بالنقد الموجه إلى العالم الإسلامى ، وليس هناك شك فى أن الإسلام قد أسيء فهمه فى الغرب ، ولكن هناك فى العالم الإسلامى من يسيء أيضا فهم الإسلام ، وهذا أمر يشترك فيه الإسلام مع غيره من الأديان ، ومن أجل ذلك تعد الجهود العلمية المبذولة لبحث الإسلام بحثا موضوعياً خالياً بقدر الإمكان من الأحكام السابقة — تعد جهوداً على درجة قصوى من الأهمية .

وينبغى أن يكون البحث الإسلامى متصلا بصفة خاصة بالحاضر ، أى أن يكون متفتحاً وقادراً على التغلب على المشكلات القائمة والقيام بالمهام الموكولة إليه بطريقة ابتكارية فى إطار الروح الإسلامى ، وإذا كان هذا البرنامج يعد برنامجاً طموحاً فإنه من ناحية أخرى يعد البرنامج الوحيد الممكن للبحث الإسلامى الذى يسعى إلى إحداث تقدم أصيل فى المجتمع الإسلامى .

ويتصل بذلك ما يمكن أن يطلب بحق من علماء الإسلاميات الغربيين الذين لايعتنقون الإسلام ويدرسونه من الخارج — ويتمثل هذا الطلب فى محاولة عرض الإسلام كما يتمثل ذلك فى مصادره الأصلية وفى أفضل الأفهام الإسلامية ، وعلى سبيل المثال فإنه من الخطأ العلمى أن يقال إن القرآن الكريم ألفه محمد صلى الله عليه وسلم ، والصحيح من وجهة النظر العلمية أن يقال : إن القرآن يعد — طبقا للعقيدة الإسلامية — وحيا من عند الله أنزله على نبيه محمد ﷺ . كما أنه من الخطأ العلمى كذلك أن يقال إن الله هو إله المحمديين[1] ، وأن يوصف الإسلام بأنه المذهب

(١) انظر على سبيل المثال قاموس
Duden, Fremdwoerterbuch

المحمدى أو بأنه دين عدوانى[١] .

وبصرف النظر عن ذلك فإن هناك عدداً كبيراً من المثقفين الغربيين لايزالون يقبلون مثل هذه المعلومات الخاطئة عن الإسلام ويعدونها من قبيل المسلمات بدلا من إزالتها من الطريق ، وهناك من جانب آخر بعض علماء الأديان المعاصرين الجادين الذين يلفتون نظر الباحثين فى الأديان إلى أن الأحكام القيمية على هذا الدين أو ذاك بالصحة أو بالبطلان أمر لايدخل فى إطار بحوثهم العلمية[٢] .

ويعترف أحد المستشرقين المعاصرين المعدودين وهو وات Watt بأن «البحث الموضوعى فى المائة وخمسين عاماً الماضية لم يستطع أن يقدم للعقل الغربى المعاصر صورة للإسلام خالية من التشويه الذى أصابها ، وإذا كنا الآن فى عالم كثرت فيه الصلات بين المسلمين والمسيحيين وازدادت أهمية عن ذى قبل فإن هذا أمر يوجب على المرء أن يبذل قصارى جهده فى توضيح الأسباب التاريخية لهذه الأحكام المسبقة عن الإسلام والتى لاتزال تراود أذهاننا دون وعى »[٣] .

وقد لاحظ المؤلف ذاته أيضا بحق أن كل ما نجده أمامنا من خلط وقلب للحقائق فيما يتصل بالإسلام يرجع إلى قصور فى التكوين الثقافى[٤] .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن القضاء على هذا الموقف المتمثل فى سوء

(١) أقرب مثال على ذلك ماورد فى صحيفة دى فلت الألمانية بتاريخ ١٩٩٠/٩/١ فى مقال كتبه هانز بيتر أو سفالد عن رحلة البابا يوحنا بولس الثانى إلى إفريقيا .

(2) H.J. Greschat : Was ist Religionswissenschaft? Stuttgart 1988 p . 23

(3) W. M. Watt : Der Islam, Bd. I, Stuttgart 1980, p, 17.

(٤) المرجع السابق ص ٣٨ .

الفهم للإسلام لايمكن أن يتحقق إلا عن طريق الفهم الصحيح ، وعندئذ يمكن أن تحل محل الصورة المشوهة للإسلام صورة أخرى واضحة غير محرفة ، وهكذا نجد أن إزالة سوء الفهم والحيلولة دون عودته إلى الظهور مرة أخرى تحتم علينا أن نبذل قصارى الجهد فى سبيل ترسيخ فهم صحيح للإسلام على أساس علمى متين .

فكيف يمكن أن يحدث ذلك ؟

لقد أكد كارليل[١] أن الهدف الرئيسى للمسيحية والإسلام هو فى الأساس هدف واحد ، ويعبر عن ذلك بقوله : « إن المسيحية تأمرنا أيضا أن نسلم أنفسنا لله على وجه الخصوص » .

وهذا يعنى الاتفاق مع المفهوم الإسلامى المحورى وهو التسليم لله ، ولكن هذا المفهوم الرئيسى فى الإسلام وهو التسليم لله أو إسلام الوجه لله كما يؤخذ ذلك من مصطلح « الإسلام » — هذا المفهوم يتعرض مثل كثير من المفاهيم الإسلامية إلى كثير من سوء الفهم ، فمن المعروف أن مصطلح الإسلام ينحدر من حيث الاشتقاق من نفس الأصل الذى ينحدر منه مفهوم السلام فى العربية ، وهذا أمر ليس من قبيل المصادفة ، لأن الإسلام يرتبط ارتباطا لاينفصم بإرادة السلام .

ولعله من المتناقضات غير المفهومة فى تاريخ العالم أننا من ناحية نجد أن الأديان العالمية الكبرى تدعو كلها فى جوهرها إلى السلام ، ولكننا من ناحية أخرى نجد أنها فى غالب الأحيان قد أسىء فهمها وزج بها فى حروب لامعنى لها ، ولايزال مثل هذا الفهم السىء للأديان قائما حتى عصرنا الحاضر ، ولكن هذا لايستند فى الحقيقة إلى مبادىء هذه الأديان ، بل يرجع إلى أغراض دنيوية يتم الدفاع عنها تحت غطاء دينى ، صحيح أن الدين الحق بدعوته إلى إسلام الوجه لله يدعو فى الوقت نفسه إلى الجهاد أيضا ،

(1) Watt, What is Islam ? p. 6.

ولكنه جهاد ضد البغى والعدوان ، وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »(١) وفى هذا الإطار يعد هذا الجهاد أيضا جهادا لاعلاء كلمة الحق وإقامة موازين العدل فى هذا العالم ، ومحاربة النزعات الشريرة فى النفس الإنسانية.

ومن هنا نجد أن « الدعاية الحربية للعصر الوسيط المسيحى » كما يسميها أحد المستشرقين(٢) والتى تمثلت فى الحروب الصليبية ، والتى لا يزال أثرها باقيا حتى اليوم ، قد أصبحت من مخلفات العصور الماضية ، ولم يعد لها فائدة بصرف النظر عما يمكن أن تسببه من أضرار لا حصر لها . وإذا كان الإسلام يعترف بصفة مبدئية بالمسيحية فى صورتها الأصلية فإن مثل هذه التيارات الهجومية على الإسلام لا محل لها فى حقيقة الأمر ، ولكنها لا تزال تعتمد إلى حد كبير على الحجج الجدلية العقيمة المنحدرة من العصر الوسيط .

ويعترف العقلاء على كلا الجانبين الإسلامى والغربى بأن الظروف قد تغيرت تغيراً تاماً وأن الحقيقة الواقعية فى أيامنا هذه تتطلب حلولا واقعية للمشكلات القائمة ، وتتطلب جهودا مشتركة للتغلب على الكثير من العقبات. والعالم الإسلامى يعرف اليوم أكثر من أى وقت مضى أن المشكلات الجديدة فى عالمنا المعاصر والتى تعد على درجة قصوى من الأهمية للمجتمعات الإسلامية ، وبخاصة مشكلات التكيف المتعقل لا العشوائى مع المدنية الغربية والتكنولوجيا الحديثة — لم يعد يمكن أن تحل عن طريق إجابات العلماء القدامى الذين لم يعرفوا عنها شيئا ، كما لا يمكن بصفة خاصة أن تحل عن طريق التقليد الأعمى للأفكار الغربية الحديثة ؛ وإنما يمكن حلها بروح الإسلام باجتهاد جديد كما كان يفعل علماؤنا السابقون .

(١) سورة البقرة آية ١٩٠

(٢) انظر : Watt فى المرجع السابق ص ١

والغرب من جانبه يعرف الآن أكثر من أى وقت مضى أن ضرورة التعايش واستمراره فى عالم اليوم تتطلب التعاون الحقيق مع العالم الإسلامى الذى يشكل سكانه أكثر من خمس سكان العالم . ويحتفظ فى باطن أرضه بمعظم الثروات المعدنية والنفطية فى العالم .

وهناك من غير شك جهود ملحوظة لتهدئة صيحات الحرب القديمة والاعتراف بالدور الفاعل والمؤثر للإسلام فى توجيه الطاقات وصياغة الحياة لأكثر من خمس سكان العالم ممن يدينون بالإسلام .

ولكن هناك جهودا أخرى مضادة مرتبطة بالجهود السابقة بطريقة غير مفهومة لا تزال تسيء فهم الإسلام بوعى وبغير وعى . وتنظر إلى العالم الإسلامى نظرة سلبية . ومن هنا نجد أن كارليل نفسه يريد أن يقتحم الإسلام كما يقتحم حصناً معادياً . ويتفق كثيرون مع كارليل فى هذا الصدد(١).

وهناك اليوم فى الغرب اتجاه ملحوظ يرى فى العالم الإسلامى العدو المحتمل بعد انهيار العدو التقليدى الذى كان يتمثل فى الاتحاد السوفيتى السابق ودول الكتلة الشرقية قبل تحولها عن الماركسية .

وهذا يعنى استمرارا لتراث لاهوتى متحفى من العصر الوسيط . فقد كانت دراسة الإسلام حينذاك لها هدف واحد معلن يتمثل فى محاربة الإسلام بعد أن تأكد المرء منذ ثمانمائة عام من أن مجرد الشتائم والافتراءات ونسج القصص والأساطير حول الإسلام لا يكفى لمحاربته ، ومن أجل ذلك أوعز بطرس الموقر حينذاك إلى أحد العلماء المسيحيين بترجمة القرآن

(١) المرجع السابق ص ٢

لأن الأهداف التبشيرية تتطلب معرفة آراء الخصم معرفة جيدة — كما كان يقول —[1] .

وقد بدأت الدراسات الاستشراقية منذ عصر التنوير تتخلص شيئاً فشيئاً من طريقة التفكير اللاهوتية[2]. وفى بداية القرن الثامن عشر وجدنا أن « هادريان ريلاند » لايزال لديه أثر الاتجاه التبشيرى أو على الأقل كان يتحدث عن ذلك ، وإن كنا نعتقد أنه كان مضطراً لذلك خوفاً من بطش الكنيسة حينذاك . وبصرف النظر عن ذلك فقد كان موقف ريلاند يعد موقفا متقدما جدا إذا قيس بمقاييس عصرنا فى نهاية القرن العشرين . فقد طالب ريلاند بدراسة الإسلام وضرورة عرضه عرضا موضوعيا ، وكان يرى أنه لايجوز أن يفهم المرء الإسلام أخذا من أقوال الآخرين وما كتبوه عنه فى مؤلفاتهم، وإنما ينبغى على المرء أن يبذى قصارى جهده فى دراسة مستقلة للمؤلفات العربية ، وأن يرى بعينيه هو لا بعيون الآخرين ليعرف حقيقة الإسلام الذى انتشر انتشاراً واسعاً فى آسيا وأفريقيا وأصبح معروفا فى أوربا أيضاً لكثير من الناس .

ويضيف ريلاند : إنه إذا كنا نعترف بأن الله قد أعطى العقل لكل الناس فكيف يجوز للمرء أن ينكر العقل لدى المسلمين ولدى علمائهم ؟

وفوق ذلك طالب ريلاند[3] منذ ثلاثة قرون بدراسة الإسلام من مصادره الأصلية ، وعرضه كما يعرضه المسلمون ويتعلمونه فى مدارسهم ومساجدهم .

---

(1) Fueck, p. 4 f.

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ وما بعدها .

(3) Pfannmueller, G. Handbuch der Islamliteratur, Berlin 1921, p. 63 f,

ولكننا نعود مرة أخرى إلى العصر الحاضر . فبدلا من النظر إلى الإسلام على أنه يمثل تهديدا للغرب والانطلاق فى دراسته من ذلك ينبغى على الغرب — كما يقول وات — أن يحاول تأمل الإسلام بطريقة موضوعية ومعرفة إمكاناته الإيجابية[1] وينبه إلى أنه لايجوز التقليل من قيمة الإسلام[2] .

فالمرء لايستطيع — كما يقول — « أن يعرف الإسلام دون أن يفكر فى إمكاناته . فالإسلام هو أحد المرشحين الرئيسيين (فى الصراع من أجل سيطرة دين من الأديان فى مستقبل عالمنا) ، إنه منافس خطير للمسيحية وللإنسانية » .

ولست أدرى كيف يفهم الإسلام على أنه منافس خطير للإنسانية وهو نفسه دين الإنسانية ؟

ولكن « وات » ينبه إلى أن الحماس المعادى للإسلام يمثل خطرا يتمثل فى إصدار أحكام غير موضوعية على الإسلام وتقدير إمكاناته تقديراً خاطئا . فالخوف يؤثر على القدرة المعرفية ، وفى ذلك يقول :

إذا كان الإسلام يهدد تصورنا لديننا فى العالم (سواء كان هذا الدين هو المسيحية أو الماركسية أو غير ذلك) فكيف يمكن أن يكون فى وسعنا أن نحكم على الإسلام حكما موضوعيا وأن نقدر إمكاناته ؟

ومن أجل ذلك لا يريد أن يظل واقفاً عند حدود هذه التخوفات ، ويميل إلى اتخاذ موقف تأملى إيجابى ، ويشير إلى أن الإسلام يعبر عن

---

(1) Watt : What is Islam ?

(٢) المرجع السابق ص ٤ .

رؤية روحية للعالم وللحياة، وهى رؤية لاتختلف كثيراً عن مثيلتها فى المسيحية واليهودية — كما يقول —[١] .

ويذهب وات إلى القول « بأننا نقف اليوم أمام بداية عملية جديدة تقدم صياغة عقلية للأمور الجوهرية فى الرسالة الدينية التى يشتمل عليها القرآن »[٢]

ولكن البرنامج الذى يتصوره فى هذا الصدد بوصفه متأملا خارجيا للإسلام لا يمثل بالضرورة موقف المسلم من الإسلام عندما يتغلغل الإسلام فى أعماقه فيبذل قصارى جهده ليحيا بالإسلام الذى يعنى بالنسبة له تديناً حياً وليس مجرد موضوع للدراسة . ولكن هذا لاينبغى أن يحول بين المسلم وبين أن يفهم بقدر الإمكان فكر المحاور الغربى وخصوصيات طبيعته .

وعلى الرغم من كل الصعوبات فإننا إذا بذلنا جهوداً جديدة باستمرار لكى نفهم الآخر الذى نتحاور معه ، وليس فقط أن نعرض تصوراتنا عنه، فإنه يمكن أن تكون هناك فرصة للتعاون الحقيقى المثمر بين الطرفين . فإنه بصرف النظر عن حقيقة اختلاف طرق الأديان فإنها مع ذلك تؤدى — كما هو المأمول — إلى ذات الهدف . والهدف الواحد يمكن أن تراه العين من أماكن مختلفة فى صور مختلفة . وينبغى ألا يغيب عنا هذا الهدف المشترك للأديان . ففى توحيد الألوهية — كما قيل بحق — « تتأسس وحدة الجنس البشرى وتتأسس المساواة بين كل البشر أمام الله »[٣]

(١) المرجع السابق ص ٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٥

(1) H. Kueng : Christentum und Islam, in Zeitschrift : Islam und der Westen. Jg. 5, Nr. 3, 1985, p. 9.

ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى فى قوله تعالى :

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »[١] .

ويؤكد الأستاذ كونج « أنه لن يكون هناك سلام بين شعوب هذا العالم بدون أن يكون هناك سلام بين أديان العالم ، فكم كان يمكن أن توفر البشرية على نفسها الكثير من ويلات الموت والخراب والدمار إذا لم يكن هناك من دعا باسم الدين إلى إثارة العدوات والأحقاد ، بل دعا إلى الوفاق والسلام كما جاءت بذلك الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين والمسلمين »[٢] .

ونود أن نضيف إلى ذلك أننا يمكن أن نتفادى فى حاضرنا ومستقبلنا أيضاً الكثير من الموت والخراب والدمار عن طريق الالتزام بدعوة الأديان إلى الوفاق والسلام بين البشر . وهنا لابد أن تتطابق الدعوة إلى ذلك مع الممارسة العملية بأن نقول ما نفعل ونفعل ما نقول كما يحث القرآن الكريم على ذلك : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون »[٣] .

وقد صور أحد العلماء الغربيين وهو أوليفير لا كومب موضوع الإسلام تصويراً بديعاً حين قال[٤] : « إن الموضوع الذى يعد محور الإسلام ، أى حقيقة الإسلام ، يمكن تشبيهه بجوهرة ، والإسلام يمثل الخزانة المعدة لاستقبال هذه الجوهرة وحفظها .

(١) سورة الشورى آية ١٣

(٢) المرجع السابق ص ٤

(٣) سورة الصف آية ٢ ، ٣

(4) Olivier Lacombe : Sagesse chretienne et sagesse d' orient, in 'Luman vitae' vl, Brussel 1949, P.699

ويرى المؤلف نفسه « أن أوربا التى انسلخت عن المسيحية ينبغى أن تفكر فى هذا الموضوع الذى يمثل محور الإسلام للعثور مرة أخرى على الحقيقة التى لا يجوز إنكارها أبداً »[١] .

ويمكن القول : إن تحقق المؤمن بإسلام وجهه لله يعبر عن هـذه الجوهرة . والكلمات لا تستطيع أن تصور ذلك، لأن الدين — كما قيل — شىء آخر مختلف تماماً[٢] . فالدين يفتح للإنسان الذى يسلم وجهه إلى الله بعداً جديداً تماماً لا يستطيع العقل وحده أن يبلغه .

وفى ختام هذا المقال أود أن أشير إلى أنه إذا كان قد قيل[٣] : إن عدم قدرة الغربى على فهم المسلم تتطابق مع عدم قدرة المسلم على فهم الغربى، فإنه يمكن القول أيضاً : إننا إذا أردنا أن نحقق أنفسنا ونعرفها فى أفضل إمكاناتها فإنه يجب علينا أن نحاول التعرف بصدق على الآخر الذى لم نفهمه. وهنا تكمن فرصتنا التى لابد أن نغتنمها قبل فوات الأوان . وهـذه الدعوة ليست موجهة إلى طرف دون الآخر ، فالقرآن الكريم قد أعلنها دعوة عامة موجهة إلى كل الشعوب والأجناس فى كل زمان ومكان : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »[٤] صدق الله العظيم .

* * *

---

(١) المرجع السابق

(5) Le Gai Eaton, p. 13.

(٣) المرجع السابق ص ١٥

(٤) سورة الحجرات ١٣ .